

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، وقال ابن عباس وقتادة: من أولها إلى قوله تعالى: ﴿سَمِّهِ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣] مدني، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٧] مكي، ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] مدني، وما بقي مكي؛ قاله الماوردي (١).

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ أدمغ النون الثانية في هجائها في الواو (٢) أبو بكر والمفضل وهبيرة وورش وابن محيصة وابن عامر والكسائي ويعقوب، والباقون بالإظهار، وقرأ عيسى بن عمر بفتحها؛ كأنه أضمر فعلا، وقرأ ابن عباس ونصر وابن أبي إسحاق بكسرها على إضمار حرف القسم، وقرأ هارون ومحمد بن السميح بضمها على البناء، واحتلف في تأويله؛ فروى معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «ن: لوح من نور» (٣)، وروى ثابت البناني أن «ن» الدواة، وقاله الحسن وقتادة، وروى الوليد بن مسلم قال: حدثنا مالك بن أنس عن سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة وذلك قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ ثم قال له: اكتب قال: وما أكتب؟ قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة - قال - ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل فقال الجبار: ما خلقت خلقا أعجب إلي منك، وعزتي وجلالي لا أكملنك فيمن أحببت ولا أنقصنك فيمن أبغضت» قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «أكمل الناس عقلا: أطوعهم لله، وأعملهم بطاعته» (٤).

(١) الماوردي (١/ ٥٩) في النكت والعيون .

(٢) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص٥٢) .

(٣) مرسل غريب : كذا حكم عليه ابن كثير (٨ / ١٤٧) ، وقال : « مرسل غريب » .

قلت : بل هو موضوع ، فلا حجة لأحد فيه ؛ لأن منته منكر ، ثم فيه : فرات بن أبي الفرات ، وهو ضعيف ، وفيه الحسن بن شيبان وهو ضعيف كما رواه الطبري (٢٩ / ١٨) في تفسيره .

(٤) هذا ضعيف جداً : وما هي إلا إسرائيلييات نقلها المسلمون عن أهل الكتاب ، وهذا الكلام وإن صح إسناداً - ولا يصح - فلا يصح متناً أبداً . فالخوت (ليوثا) و (لوثوثا) أو (بلهموثا) هذه كلها من ترهات أهل الكتاب =

وعن مجاهد قال: ﴿ن﴾ الحوت الذي تحت الأرض السابعة.

قال: ﴿وَالْقَلَمُ﴾ الذي كُتِبَ به الذكر.

وكذا قال مقاتل ومرة الهمداني وعطاء الخراساني والسدي والكلبي: إن النون هو الحوت الذي عليه الأرضون.

وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره، فمادت الأرض فأنبتت بالجبال، وإن الجبال لتضخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس: ﴿ن وَالْقَلَمُ﴾ الآية.

وقال الكلبي ومقاتل: اسمه اليهموت^(١)، قال الراجز:

مالي أراكم كلكم سكوئا والله ربي خلق اليهموتا

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا^(٢)، وقال كعب^(٣): لوثوثا، وقال^(٤): بلهموثا، وقال

كعب: إن إبليس تغفل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون فوسوس في قلبه.

وقال: أتدري ما على ظهرك يا لوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتهم

ألقيتهم عن ظهرك أجمع؛ فهم ليوثا أن يفعل ذلك، فبعث الله إليه دابة فدخلت منخره ووصلت إلى

دماغه، فضج الحوت إلى الله عز وجل منها فأذن الله لها فخرجت.

قال كعب: فوالله إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت^(٥).

وقال الضحاك عن ابن عباس:

إن ﴿ن﴾ آخر حرف من حروف الرحمن، قال: الر، وحم، ون؛ الرحمن تعالى متقطعة^(٦).

وقال ابن زيد: هو قسم أقسم الله تعالى به^(٧)، وقال ابن كيسان: هو فاتحة السورة^(٨)،

وقيل: اسم السورة، وقال عطاء وأبو العالية: هو أفتتاح اسمه نصير ونور وناصر^(٩).

وقال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين^(١٠)؛ وهو حق، بيانه قوله تعالى:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال جعفر الصادق: هو نهر من أنهار الجنة يقال له: نون،

وقيل: هو المعروف من حروف المعجم؛ لأنه لو كان غير ذلك لكان معربا؛ وهو اختيار القشيري

=وقد رويت في سفر التكوين (٢/ ١-٢) وهو أحد أسفار التوراة، كما برئت ساحة ابن مسعود وابن عباس -

رضي الله عنهما - بعد أن أكد ابن كثير (٦/ ٣٦٠) في تفسيره أنها رواية تلقاها المسلمون عن كعب. ثم هي رواية مخالفة لبعض القرآن إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُنْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَفِي زَاقِنَا إِنَّ أَمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ

بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

فاضرب عن هذه الأخبار صفحا.

(١-٥) انظر التخريج السابق.

(٦-١٠) هذا كله لم يثبت صحته، وقد انفقت كلمة العلماء والمحققين على أن الحروف المقطعة جاءت لإعجاز بلغاء

العرب وفصحائهم، والله أعلم.

أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره، قال: لأن ﴿قَلَمٌ﴾ حرف لم يُعْرَبَ، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم، فهو إذا حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور، وعلى هذا قيل: هو اسم السورة، أي هذه سورة ﴿قَلَمٌ﴾، ثم قال: ﴿وَأَقْلَمُ﴾ أقسم بالقلم لما فيه من البيان كاللسان؛ وهو واقع على كل قلم مما يكتب به من في السملة ومن في الأرض؛ ومنه قول أبي الفتح البستي:

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسِفْهِمْ وَعَدُوَّهُ مِمَّا يَكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَمَ
كَفَى قَلَمُ الْكِتَابِ عِزًّا وَرَفَعَةً مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة؛ ما ذكرناه أعلاها، وقال ابن عباس: هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله؛ فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض^(١)، ويقال: خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين، فقال: آجر؛ فقال: يا رب بم آجري؟ قال: بما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فجرى على اللوح المحفوظ، وقال الوليد بن عباد بن الصامت: أوصاني أبي عند موته، فقال: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده، والقدر خير به وشره، سمعت النبي ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: يا رب وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر، فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد^(٢) وقال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن؛ فكتب فيما كتب: ﴿بَتَّ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [السد: ١] ^(٣)، وقال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى على عباده^(٤)، قال غيره: فخلق الله القلم الأول فكتب ما يكون في الذكر ووضعته عنده فوق عرشه، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض؛ على ما يأتي بيانه في سورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما يكتبون، يريد الملائكة يكتبون أعمال بني آدم^(٥)؛ قاله ابن عباس: وقيل: وما يكتبون أي الناس ويتفاهمون به، وقال ابن عباس: ومعنى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يعلمون^(٦)، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدرية؛ أي ومسطوراتهم أو مسطرهم، ويراد به كل من سطر أو الحفظة؛ على الخلاف، ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ هذا جواب القسم وهو نفي، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون، وبه شيطان، وهو قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ أي: برحمة ربك، والنعمة ها هنا الرحمة، ويحتمل ثانيا: أن النعمة ها هنا قسم؛ وتقديره: ما أنت ونعمة ربك بمجنون؛ لأن الواو والباء من حروف القسم، وقيل: هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله،

(١) هذا أيضا ضعيف كسابقه: البغوي (٨/ ١٧٨) في تفسيره. وقد رواه الطبري دون زيادة «من نور» (٢٩/ ١٩) في تفسيره.

(٢) صحيح: أبو داود (٤٧٠٠) في السنة، وصححه الألباني هناك، ورواه أحمد (٥/ ٣١٧) في المسند.

(٣) لم يرد به نص صحيح فهو ضعيف منكر.

(٤) هذا معنى صحيح، والله أعلم.

(٥، ٦) زاد المسير (٦/ ٥٥) لابن الجوزي.

وهو منقطع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس بلفظ: «ويكتبون»، والطبري (٢٩/ ٢٠) في تفسيره.

وقيل: معناه: ما أنت بمجنون، والنعمة لربك؛ كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي: والحمد لله، ومنه قول لبيد:

وأفردتُ في الدنيا بِفَقْدِ عَشِيرَتِي وَفَارَقَنِي جَارٌ بِأُرَيْدَ نَافِعُ

أي: وهو أريد، وقال النابغة:

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْنَ الْغِذَاءِ وَأُمُهُمْ طَفَحَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقِ مَذْكَارِ

أي: هو ناتق، والباء في «بِنَعْمَةِ رَبِّكَ» متعلقة ب«بِمَجْنُونٍ» منفيًا؛ كما يتعلق بغافل مثبتًا، كما في قولك: أنت بنعمة ربك غافل، ومحلّه النصب على الحال؛ كأنه قال: ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك، «وَأَنَّ لَكَ لِأَجْرًا» أي: ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوة، «غَيْرَ مَمْنُونٍ» أي: غير مقطوع ولا منقوص؛ يقال: مننت الحبل: إذا قطعتة، وحبل منين إذا كان غير متين، قال الشاعر:

عُبْسًا كَوَاسِبَ لَا يُمَنَّ طَعَامُهَا

أي: لا يقطع، وقال مجاهد: «غَيْرَ مَمْنُونٍ» محسوب^(١)، الحسن: «غَيْرَ مَمْنُونٍ» غير مكدر بالمن. الضحاك: أجرا بغير عمل، وقيل: غير مقدر وهو التفضل؛ لأن الجزاء مقدر والتفضل غير مقدر؛ ذكره الماوردي^(٢)، وهو معنى قول مجاهد.

﴿وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: «وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» قال ابن عباس ومجاهد: على خُلُقٍ، على دين عظيم من الأديان^(٣)، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه، وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن خلقه كان القرآن^(٤)، وقال علي رضي الله عنه وعطية: هو أدب القرآن^(٥)، وقيل: هو رفقه بأتمته وإكرامه إياهم، وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله ويتتهي عنه مما نهى الله عنه^(٦)، وقيل: أي: إنك على طبع كريم. الماوردي: وهو الظاهر، وحققة الخُلُقِ في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقًا؛ لأنه يصير كالخلق فيهِ، وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخِيم «بالكسر»: السجية والطبيعة، لا واحد له من لفظه، وخيم: اسم جبل، فيكون الخلق الطبع المتكلف، والخيم الطبع الغريزي، وقد أوضح الأعمش ذلك في شعره فقال:

وَإِذَا ذُو الْفُضُولِ ضَنَّ عَلَى الْمَوْلَى وَعَادَتْ لَيْخِيمَهَا الْأَخْلَاقُ

أي: رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

(١) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٢٩/ ٢٠) في تفسيره.

(٢) النكت والعيون (٦/ ٦١).

(٣) ضعيف إلى ابن عباس، وصحيح إلى مجاهد: الطبري من طريق العوفيين (٢٩/ ٢١) في تفسيره.

(٤) صحيح: مسلم (٧٤٦) في صلاة المسافرين.

(٥) النكت والعيون (٦/ ٦١).

(٦) إنما هو عن الضحاك كما عند الطبري (٢٩/ ٢٢) في تفسيره، ورواه البغوي (٨/ ١٨٨) في تفسيره عن قتادة.

قلت: ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصح الأقوال، وسئلت أيضا عن خلقه عليه السلام؛ فقرات: ﴿قَدْ أَلْحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات^(١)، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال: لبيك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، ولم يُذَكَّر خلق محمودٌ إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر، وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما؛ لأنه لم تكن له همة سوى الله تعالى، وقيل: سمي خلقه عظيما؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدل عليه قوله عليه السلام: «إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق»^(٣)، وقيل: لأنه امثل تأديب الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «أدبني ربي تأديبا حسنا إذ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فلما قبلت ذلك منه قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾»^(٤).

الثانية: روى الترمذي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن» ، قال: حديث حسن صحيح^(٥)، وعن أبي الدرداء؛ أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» ، قال: حديث حسن صحيح^(٦)، وعنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليلبغ به درجة صاحب الصلاة والصوم»^(٧)، قال: حديث غريب من هذا الوجه، وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الغم والفرج»^(٨) قال: هذا حديث صحيح غريب، وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى، وعن جابر. أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا» قال: «وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول

(١) (٢) وإه: الإحدى (ص ٣٧٨) في أسباب النزول وفيه حسين بن علوان الكوفي: كذاب في روايته عن هشام بن عروة والأعمش، وتركه النسائي، وأبو حاتم، وقال الأودي: «كذاب خبيث لا يكتب حديثه»، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقات «المجروحين (١/٢٤٤) لابن حبان، وعزاه السيوطي (ص ٤٢٨) لأبي نعيم في الدلائل بسنده.

(٣) صحيح: ولفظه «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» وانظر: صحيح الجامع (٢٣٤٩) للآباني - رحمه الله.

(٤) ضعيف: مرسل من طريق الزهري عن ابن عساكر، موصول عن ابن مسعود من رواية ابن السمعاني، انظر: ضعيف الجامع (٢٤٩، ٢٥٠) للآباني - رحمه الله.

(٥) حسن صحيح: الترمذي (١٩٨٧) في البر والصلة، والدارمي (٢٧٩١) في سنته، وهو عن معاذ - رضي الله عنه - أيضا.

(٦) صحيح: أبو داود (٤٧٩٩) في الأدب، والترمذي (٢٠٠٢) في البر والصلة، وصححه الآباني هناك.

(٧) صحيح: الترمذي (٢٠٠٣) في البر والصلة وصححه الآباني هناك.

(٨) حسن: الترمذي (٢٠٠٤) في البر والصلة، وحسنه الآباني هناك.

الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفهبون؟ قال: «المتكبرون»، قال: وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (١).

﴿ فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ بِأَيْتِكُمْ الْمَفْتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝

قوله تعالى: ﴿ فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس: معناه: فستعلم ويعلمون يوم القيامة (٢)، وقيل: فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحق والباطل، ﴿ بِأَيْتِكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ الباء زائدة (٣)؛ أي: فستبصر ويبصرون أيكم المفتون، أي: الذي فتن بالجنون (٤)؛ كقوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ بِالذُّهْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] و﴿ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٢٦]، وهذا قول قتادة وأبي عبيد والأخفش، وقال الرازي: نَحْنُ بَنُو جَعْدَةَ أَصْحَابُ الْفَلَجِ نَضْرِبُ بِالسِّيفِ وَنَرْجُو بِالْفَرْجِ وقيل: الباء ليست بزائدة؛ والمعنى: ﴿ بِأَيْتِكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ أي: الفتنة، وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه الفتون؛ كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول؛ أي: عقل ولا جلادة، وقاله الحسن والضحاك وابن عباس (٥)، وقال الراعي:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولا

أي: عقلا، وقيل: في الكلام تقدير حذف مضاف؛ والمعنى: بأيكم فتنة المفتون، وقال الفراء: الباء بمعنى في؛ أي: فستبصر ويبصرون في أي: الفريقين المجنون؛ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى، والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان، وقيل: المفتون المعذب، من قول العرب: فتننت الذهب بالنار إذا حميته، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يعذبون ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل، وقيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون في دينه، وكانوا يقولون: إن به شيطانا، وعنوا بالمجنون هذا؛ فقال الله تعالى: فسيعلمون غدا بأيهم المجنون؛ أي: الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي: إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه، ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي: الذين هم على الهدى فيجازي كلا غدا بعمله.

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾

نهاه عن ممايلة المشركين؛ وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فبين الله تعالى بأن

(١) صحيح: الترمذي (٢٠١٨) في البر والصله، وصححه لالبياني والثرثارون. في النهاية (١/ ٢٠٩): هم من يكثر الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والثرثرة. كثرة الكلام ونرديده.

والمتشدقون: المتوسعون في الكلام من غير احتياط أو احتراز.

وقيل: المستهزئ بالناس يلوي شذقه - جانب الفم - بهم وعليهم اللسان «شذق».

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٦/ ٣٩٤) بنحوه.

وهو مروى عن الضحاك كما عند الطبري (٢٩/ ٢٢).

(٣) سبق التنبيه على أنه لا يوجد شيء زائد في القرآن.

(٤) (٥) ضعيف: من رواية العوفي، عن ابن عباس كما عند الطبري (٢٩/ ٢٢) في تفسيره، وابن الجوزي (٦/

عابلتهم كفر، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ لَبِيتَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقيل: أي: فلا تطع المكذبين فيما دعوك إليه من دينهم الخبيث، نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آباة.

﴿ وَدُوا لَوْ تَدُهِنُ قَيْدَهُنُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسدي: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم (١)، وعن ابن عباس أيضا: ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك (٢)، وقال الفراء والكلبي: لو تلين فيلينون لك (٣)، والادهان: التلين لمن لا ينسغي له التلين؛ قاله الفراء، وقال مجاهد: المعنى: ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالتونك، وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون (٤)، وقال قتادة: ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيلهبون معك (٥)، الحسن: ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم (٦)، وعنه أيضا: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض لهوهم (٧)، زيد بن أسلم: لو تنافق وتراخي فينافقون ويرأون (٨)، وقيل: ودوا لو تضعف فيضعفون؛ قاله أبو جعفر، وقيل: ودوا لو تدهان في دينك فيدهنون في أديانهم (٩)؛ قاله القتيبي، وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلهتهم مدة ويعبدوا إلهه مدة، فهذه اثنا عشر قولاً. ابن العربي: ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلها دعوى على اللغة والمعنى، أمثلها قولهم: ودوا لو تكذب فيكذبون، ودوا لو تكفر فيكفرون.

قلت: كلها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإن الادهان: اللين والمصانعة، وقيل: مجاملة العدو بمايلته، وقيل: المقاربة في الكلام والتلين في القول، قال الشاعر:

لِبَعْضِ الْغَشْمِ أَحْزَمَ فِي أُمُورٍ تَنْوِيكَ مِنْ مَدَاهِنَةِ الْعَدُوِّ

وقال المفضل: النفاق وترك المناصحة، فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأول غير مذمومة، وكل شيء منها لم يكن. قال المبرد: يقال: أدهن في دينه وداهن في أمره؛ أي: خان فيه وأظهر خلاف ما يضمّر، وقال قوم: داهنت بمعنى وارتيت وأدهنت بمعنى غششت؛ قاله الجوهري، وقال: ﴿فَيَدَاهِنُونَ﴾ فساقه على العطف، ولو جاء به جواب النهي لميقال: فيدهنوا، وإنما أراد: إن تمناوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك؛ عطفنا لا جزاء عليه ولا مكافأة، وإنما هو تمثيل وتنظير.

﴿ وَلَا تَطْعَمُ كُلِّ حَلَالٍ مَهِينٍ ﴿٥﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَيْمِرٍ ﴿٦﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمِرٍ ﴿٧﴾ عَثَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنْبِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

يعني الأخنس بن شريق في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق (١٠)، وقيل: الأهود بن عبد

(١) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (٢٩) في تفسيره من طريق العوفيين، وانظر الباقي هناك إلا الضعيف فانظره: بنحوه في زاد المسير (٦/ ٥٦) لابن الجوزي.

(٢) ضعيف: منقطع بين علي بن أبي طلحة الوالي، وابن عباس - رضي الله عنهما - كما في تفسير الطبري (٢٩/ ٢٤).

(٣) (٩ - ٣) زاد المسير (٦/ ٥٧)، وذكره الطبري اثر قتادة ومجاهد (٢٩/ ٢٤).

(٤) (١٠) زاد المسير (٦/ ٥٧) لابن الجوزي.

يفوث، أو عبد الرحمن بن الأسود؛ قاله مجاهد^(١)، وقيل: الوليد بن المغيرة، عرض على النبي ﷺ ما لا وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه^(٢)؛ قاله مقاتل، وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام^(٣)، والحلاف: الكثير الحلف، والمهين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد^(٤) ابن عباس: الكذاب، والكذاب مهين^(٥)، وقيل: المكثار في الشر؛ قاله الحسن^(٦). وقتادة، وقال الكلبي: المهين الفاجر العاجز^(٧)، وقيل: معناه الحقير عند الله، وقال ابن شجرة: إنه الذليل، الرماهي: المهين الوضيع لإكثاره من القبيح، وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة، وهي هنا القلة في الرأي والتبميز، أو هو فعيل بمعنى مفعول؛ والمعنى مهان، ﴿هَمَّازٌ﴾ قال ابن زيد: الهماز الذي يهمز الناس بيده ويهزبهم، واللماز باللسان، وقال الحسن: هو الذي يهمز ناحية في المجلس؛ كقوله تعالى: ﴿هَمَزَةٌ﴾ [الهمزة: ١١]، وقيل: الهماز: الذي يذكر الناس في وجوههم، واللماز: الذي يذكرهم في مغيبهم؛ قاله أبو العالية وعطاء بن أبي رباح والحسن أيضا^(٨)، وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة: الذي يغتاب في الوجه^(٩)، وقال مرة: هما سواء، وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب، ونحوه عن ابن عباس وقتادة^(١٠)، قال الشاعر:

تُدَلِّي بُوْدٌ إِذَا لَأَقَيْتَنِي كَذِبًا وَإِنْ أَعْبُ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللَّمَزَةُ

﴿مُشَاءٌ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم، يقال: نَمَّ بَيْنَهُمَا وَنَمِيمًا وَنَمِيمَةٌ؛ أي: يمشي ويسعى بالفساد، وفي صحيح مسلم عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمام»^(١١)، وقال الشاعر:

وَمَوْلَى كَبَيْتِ النَّمْلِ لَا خَيْرَ عِنْدَهُ لِمَوْلَاهُ إِلَّا سَعْيُهُ بِنَمِيمٍ

قال الفراء: هما لغتان، وقيل: النميم جمع نميمة، ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: للمال أن ينفق في وجوهه، وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته^(١٢)، وقال الحسن: يقول لهم: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا^(١٣)، ﴿مُعْتَدٌ﴾ أي: على الناس في الظلم متجاوز للحد، صاحب باطل، ﴿أَتِيمٌ﴾ أي: ذي إثم، ومعناه أئوم، فهو فعيل بمعنى فعول، ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ العتل الجافي الشديد في كفره، وقال الكلبي والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب، مأخوذ من العتل وهو الجر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿خَذُوهُ فَاَعْلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧]، وفي الصحاح: وعتلت الرجل أعتله وأعتله: إذا جذبته جذبا عنيفا، ورجل معتل

(١ - ٣) زاد المسير (٥٧ / ٦) لابن الجوزي.

(٤) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٢٩ / ٢٥) في تفسيره.

(٥) ضعيف: الطبري (٢٩ / ٢٥) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٦، ٧) صحيح: الطبري (٢٩ / ٢٥) في تفسيره.

(٨ - ١٠) انظر السابق. وأثر ابن عباس ضعيف لكونه من طريق العوفيين، كما عند الطبري (٢٩ / ٢٥، ٢٦).

(١١) صحيح: مسلم (١٠٥) في الإيمان، وفي بعض طرقه: «لا يدخل الجنة قتات».

(١٢، ١٣) زاد المسير (٥٧ / ٦) لابن الجوزي.

«بالكسر»، وقال يصف فرسا:

نَفَّرَهُ فَرَعًا وَلَسْنَا نَعْتَلُهُ

قال ابن السكيت: عتله وعتته، باللام والنون جميعاً، والعتل: الغليظ الجافي، والعتل أيضاً: الرمح الغليظ، ورجل عتل بالكسر بين العتل؛ أي: سريع إلى الشر، ويقال: لا أعتل معك؛ أي: لا أبرح مكاني، وقال عبيد بن عمير: العتل: الأكل الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة؛ يدفع الملك من أولئك في جهنم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً، وقال علي بن أبي طالب والحسن: العتل: الفاحش السيئ الخلق^(١)، وقال معمر: هو الفاحش اللئيم^(٢)، وقال الشاعر:

بِعْتَلُ مِنَ الرَّجَالِ زَنِيمٌ غَيْرُ ذِي نَجْدَةٍ وَغَيْرُ كَرِيمٍ

وفي صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة» قالوا بلى قال: «كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار» قالوا: بلى قال: «كل عتل جواز مستكبر»، وفي رواية عنه: «كل جواز زنيم متكبر»^(٣)، الجواز: قيل هو الجموع المنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته، وذكر الماوردي^(٤) عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن ابن غنم، ورواه ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جواز ولا جعظري ولا العتل الزنيم»، فقال رجل: ما الجواز؟ وما الجعظري؟ وما العتل الزنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «الجواز الذي جمع ومنع، والجعظري: الغليظ، والعتل: الزنيم الشديد الخلق الرحيب الجوف المصحح الأكل الشروب الواحد للطعام الظلوم للناس»^(٥)، وذكره الثعلبي عن شداد بن أوس: «لا يدخل الجنة جواز ولا جعظري ولا عتل زنيم» سمعتهن من النبي ﷺ قلت: وما الجواز؟ قال: الجماع المناع، قلت: وما الجعظري؟ قال: الفظ الغليظ، قلت: وما العتل الزنيم؟ قال: الرحيب الجوف الوثير الخلق الأكل الشروب العشوم الظلوم^(٦).

قلت: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أرى على أقوال المفسرين، ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجواز أنه الفظ الغليظ، ذكره من حديث حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة الجواز ولا الجعظري»^(٧). قال: والجواز: الفظ الغليظ، ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أولاً، وقد قيل: إنه الجافي القلب، وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى: «عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ» قال: قال النبي ﷺ: «تبكي السماء من رجل أصح الله جسمه ورحب جوفه وأعطاه من الدنيا بعضاً، فكان للناس ظلوماً، فذلك العتل الزنيم، وتبكي السماء من الشيخ

(١) زاد المسير (٦/ ٥٧) لابن الجوزي .

(٢) متفق عليه : البخاري (٦٦٥٧) في الأدب ، ومسلم (٢٨٥٣) في الجنة وصفة نعيمها .

(٤) الماوردي (٦/ ٦٤ ، ٦٥) في النكت والعيون .

(٥) ضعيف : أحمد (٤/ ٢٢٧) في المسند وفيه شهر بن حوشب ، وهو مختلف في توثيقه كما أن عبد الرحمن ابن غنم مختلف في صحته ، وانظر الهيثمي (٤/ ٣٢٧) .

(٦) ذكره الهيثمي (١٠/ ٢٦٥) في المجمع من رواية أبي هريرة وغيره وليس فيه شداد - رضي الله عنه .

(٧) صحيح : أبو داود (١٠١/ ٤٨٠) في الأدب ، وصححه الألباني هناك .

معنى ﴿بِهْتَانٍ﴾ بولد ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما أخذته لقيطاً، ﴿وَأَرْجُلِهِمْ﴾ ما ولدته من زنا، وقد تقدم.

السادسة : قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء^(١)، واختلف في معناه على ما ذكرنا، والصحيح أنه عام في جميع ما يأمر به النبي ﷺ وينهى عنه؛ فيدخل فيه النوح وتخريق الثياب وجز الشعر والخلوة بغير محرم إلى غير ذلك، وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية، وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية» فذكر منها النياحة^(٢)، وروى يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفين صفا عن اليمين وصفا عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار»^(٣)، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصلي الملائكة على نائحة ولا مرنة»^(٤)، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع نائحة فاتاها فضربها بالدرة حتى وقع خمارها عن رأسها، فقيل: يا أمير المؤمنين، المرأة المرأة! قد وقع خمارها، فقال: إنها لا حرمة لها، أسند جميعه الثعلبي رحمه الله، أما تخصيص قوله: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ مع قوة قوله: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنه تفسير للمعنى على التأكيد؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] لأنه لو قال احكم لكفى، الثاني: إنما شرط المعروف في بيعة النبي ﷺ حتى يكون تبيها على أن غيره أولى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال.

السابعة : روى البخاري عن عبادة بن الصامت، قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا» قرأ آية النساء، وأكثر لفظ سفيان قرأ في الآية: «فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له منها»^(٥)، وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان؛ فكلهم يصلوها قبل الخطبة ثم يخطب؛ فنزل نبي الله ﷺ فكانني انظر إليه حين يجلس الرجال بيده، ثم أقبل يشقههم حتى أتى النساء مع بلال فقال: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبِهْتَانٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ»، حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: «أنتن على ذلك؟» فقالت: امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله؛ لا يدري الحسن من هي، قال: «فتصدقن» وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفسخ والحواتيم في ثوب بلال^(٦)، لفظ

(١) صحيح : البخاري (٤٨٩٣) في التفسير متفرداً به عن مسلم .

(٢) صحيح : مسلم (٩٣٤) في الجنائز .

(٣) ضعيف : الهيثمي (١٤ / ٣) في المجمع وعزاه للطبراني في الأوسط ، وفيه سليمان بن داود اليمامي : وهو ضعيف .

(٤) ضعيف : الهيثمي (١٣ / ٣) في المجمع وعزاه لأحمد ، وأبى يعلى ، وقال : وفيه أبو مرارة ولم أجد من وثقه أو جرحه وبقيه رجاله ثقات ، وقال المنذرى (٤ / ١٨٤) في الترغيب : إسناده حسن - إن شاء الله .

(٥) سبق تخريجه .

(٦) متفق عليه : البخاري (٤٨٩٥) في التفسير ، ومسلم (٨٨٤) في صلاة العيدين . والفتح : بفتحتين : جمع فتحة =

من أين قاله، ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يطعم أهل منى حياً^(١) ثلاثة أيام، وينادي: ألا لا يوقد أحد تحت برمة، ألا لا يدخن أحد بكراً، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة، وكان ينق في الحجّة الواحدة عشرين ألفاً وأكثر، ولا يعطي المسكين درهما واحداً، فقيل: ﴿مَنَعَ لِلْخَيْرِ﴾، وفيه نزل: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت]، وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأحسن بن شريق، لأنه حليف ملحق في بني رهرة، فلذلك سمي زنيماً، وقال ابن عباس: في هذه الآية نعت، فلم يعرف حتى قتل فعرف، وكان له زعمه في عتقه معلقة يعرف بها^(٢)، وقال مرة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثمانين عشرة سنة^(٣).

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو حيوة والمغيرة والأهرج: «أَنْ كَانَ» بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام، وقرأ المفضل وأبو بكر وحمزة: «أَنَّ كَانَ» بهمزتين محققتين، وقرأ الباقرن بهمزة واحدة على الخبر؛ فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ، ويحسن له أن يقف على ﴿زَيْمٌ﴾، ويستدئ ﴿أَنَّ كَانَ﴾ على معنى الآن كان ذا مال وبنين تطيعه، ويجوز أن يكون التقدير: الآن كان ذا مال وبنين يقول: إذا تتلى عليه آياتنا: أساطير الأولين، ويجوز أن يكون التقدير: الآن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر، ودل عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام، ومن قرأ: ﴿أَنَّ كَانَ﴾ بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمّر، والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين، ودل على هذا الفعل: ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ﴾ ولا يعمل في ﴿أَنَّ﴾ ولا ﴿قَالَ﴾ لأن ما بعد ﴿إِذَا﴾ لا يعمل فيما قبلها؛ لأن ﴿إِذَا﴾ تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المصاف إليه فيما قبل المصاف، و﴿قَالَ﴾ جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء إذ حكم العامل أن يكون قبل المصاف وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدماً مؤخراً في حال، ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه؛ لأن كان ذا يسار وحمد، قال ابن الأباري: ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على ﴿زَيْمٌ﴾، لأن المعنى لأن كان ويأن كان، «فإن» متعلقة بما قبلها، قال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله ﴿مَشَاءٌ بِنَمْسٍ﴾ والتقدير: يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين، وأجار أبو علي أن يتعلق «بعقل»، وأساطير الأولين أباطيلهم وترهاتهم وحرافاتهم، وقد تقدم.

﴿سَسِئَةٌ وَعَلَى الْخَيْرِ طُورٌ ﴿١﴾﴾

فيه مسائل

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَسِئَةٌ﴾ قال ابن عباس: معنى «سَسِئَةٌ»: سنخطمه بالسيف، قال: وقد

(١) الحيس: في اللسان: الاقط مخلوط بالنمر والسمن.

(٢) بنحوه عند الطبري من طريق العوفي (٢٩ / ٢٨) في تفسيره، وذكره البغوي (٨ / ١٩٣) في تفسيره.

(٣) ذكره البغوي (٨ / ١٩٣) في تفسيره.

خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف؛ فلم يزل مخطوما إلى أن مات (١)، وقال قتادة: سنسمة يوم القيامة على أنفه سمة يعرف بها؛ يقال: وسمته وَسْمًا وَسِمَةً إذا أثرت فيه بسمة وكى، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فهذه علامة ظاهرة، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] وهذه علامة أخرى ظاهرة، فأفادت هذه الآية علامة ثالثة وهي: الوسم على الأنف بالنار؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] قاله الكلبي وغيره، وقال أبو العالية ومجاهد: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أي: على أنفه، ونسود وجهه في الآخرة فيعرف بسواد وجهه، والخرطوم: الأنف من الإنسان، ومن السباع: موضع الشفة، وخراطيم القوم: ساداتهم، قال الفراء: وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنه في معنى الوجه؛ لأن بعض الشيء يعبر به عن الكل، وقال الطبري: نبين أمره تبيانا واضحا حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم، وقيل: المعنى سنلحق به عارا وسبة حتى يكون كمن وسم على أنفه، قال القتيبي: تقول العرب للرجل يسب سبة سوء قبيحة باقية: قد وسم ميسم سوء؛ أي: ألصق به عار لا يفارقه؛ كما أن السمة لا يمحي أثرها، قال جرير:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مَيْسِمِي وَعَلَى الْبَعِيثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ

أراد به الهجاء، قال: وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة، ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فالحق به عارا لا يفارقه في الدنيا والآخرة؛ كالوسم على الخرطوم، وقيل: هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذل وصغار؛ قاله ابن بحر، واستشهد بقول الأعشى:

فَدَعَهَا وَمَا يُغْنِيكَ وَأَعْمِدُ لِغَيْرِهَا بِشِعْرِكَ وَأَعْلَبُ أَنْفَ مَنْ أَنْتَ وَأَسِمُ

وقال النضر بن شميل: المعنى سنحده على شرب الخمر، والخرطوم: الخمر، وجمعه خراطيم، قال الشاعر:

تَظَلُّ يَوْمَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي طَرَبٍ وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ شَرَّابُ الْخَرَّاطِيمِ

قال الراجز:

صَهَبَاءُ خُرْطُومًا عَقَارًا قَرَقَفًا

وقال آخر:

أَبَا حَاصِرٍ مَنْ يَزِنُ يُعْرِفُ زِنَاؤُهُ وَمَنْ يَشْرَبُ الْخُرْطُومَ يَصْبِحُ مُسْكِرًا

الثانية: قال ابن العربي (٢): كان الوسم في الوجه لذي المعصية قديما عند الناس، حتى أنه روي - كما تقدم - أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني اعتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجه (٣)؛ وهذا

(١) ضعيف: الطبري (٢٩/ ٣١) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨٥٧) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٣) تحميم الوجه: تغييره بالفحم وتسويده. اللسان «حم».

وضع باطل، ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور، علامة على قبح المعصية وتشديد لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته؛ فقد كان عزيزا بقول الحق وقد صار مهينا بالمعصية، وأعظم الإهانة إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببا لخيرة الأبد والتحريم له على النار؛ فإن الله تعالى قد حرم على النار أن تاكل من ابن آدم أثر السجود؛ حسب ما ثبت في الصحيح.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿١٨﴾
فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ يريد أهل مكة ، والابتلاء الاختبار ، والمعنى أعطيناهم أموالا ليشكروا لا ليبطروا ؛ فلما بطروا وعادوا محمدا ﷺ ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء - ويقال : بفرسخين - وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها ؛ فلما مات صارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها ويخلوا بحق الله فيها ؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها ، قال الكلبي : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ؛ ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم ، وقيل : هي جنة بضوران ، وبصوران على فرسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام يسيرون - وكانوا بخلاء - فكانوا يجدون التمر ليلا من أجل المساكين ، وكانوا أرادوا حصاد زرعها وقالوا : لا يدخلها اليوم عليكم مسكين ، فغدوا عليها فإذا هي قد اقتلعت من أصلها فأصبحت كالصرير ؛ أي : كالليل ، ويقال أيضا للنهار صريم ، فإن كان أراد الليل فلاسوداد موضعها ، وكانهم وجدوا موضعها حماة ، وإن كان أراد بالصرير النهار فلذهاب الشجر والزرع ونقاء الأرض منه ، وكان الطائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقطلعها ، فيقال : إنه طاف بها حول البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ؛ ولذلك سميت الطائف ، وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعنان والماء غيرها ، وقال البكري في المعجم : سميت الطائف ؛ لأن رجلا من الصدق (١) يقال له : الدمون بنى حائطا وقال : قد بنيت لكم طائفا حول بلدكم ؛ فسميت الطائف ، والله أعلم .

الثانية : قال بعض العلماء : على من حصد زرضا أو جد ثمرة أن يواسي منها من حضره ؛ وذلك معنى قوله : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] وأنه غير الزكاة على ما تقدم في الأنعام بيانه ، وقال بعضهم : وعليه ترك ما أخطأه الحاصدون ، وكان بعض العباد يتحرون أقواتهم من هذا ، وروي أنه نهي عن الحصاد بالليل (٢) ، فقيل : إنه لما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق ، وتأول من قال هذا الآية التي في «سورة ن والقلم» ، قيل : إنما نهي عن ذلك خشية الحيات وهوام الأرض .

قلت : الأول أصح ؛ والثاني حسن ، وإنما قلنا الأول أصح ؛ لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه

(١) الصدق : مخلاف باليمن منسوب إلى القبيلة ، والنسب إليها صدفي . معجم البلدان (٣ / ٤٥١) .

(٢) صحيح : صححه الألباني (٦٨٧٢) في صحيح الجامع ، وعزاه للبيهقي عن الحسين - رضي الله عنه .

من منع المساكين كما ذكر الله تعالى، روى أسباط عن السدي قال: كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلاً صالحاً، وكان إذا بلغ ثماره أتاه المساكين فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها ويتزودوا؛ فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض: علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين! تعالوا فلندلج، فنصر منها قبل أن يعلم المساكين؛ ولم يستنوا؛ فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خفتنا: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني حلفوا لهما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: لنجذنها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين؛ ولا يستنون؛ يعني: لم يقولوا: إن شاء الله، وقال ابن عباس (١): كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تعده المنجل فلم يجده من الكرم، فإذا طرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعده المنجل فهو للمساكين، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم، فقالوا: قل المال وكثر العيال؛ فتحالفوا بينهم ليغدون غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين، وهو قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي: حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسدفة (٢) من الليل لئلا يتتبه المساكين لهم، والصرم القطع، قال: صرم العذق عن النخلة، وأصرم النخل أي: حان وقت صرامه، مثل أركب المهر وأحصد الزرع، أي: حان ركوبه وحصاده.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَنُونَ﴾ أي: ولم يقولوا: إن شاء الله، وقال مجاهد: كان حرثهم عنباً ولم يقولوا: إن شاء الله، وقال أبو صالح: كان استنواؤهم قولهم: سبحان الله ربنا، وقيل: معنى ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ أي: لا يستنون حق المساكين؛ قاله عكرمة، فجأؤوها ليلاً فأرأوا الجنة مسودة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، قيل: الطائف جبريل عليه السلام؛ على ما تقدم ذكره، وقال ابن عباس: أمر من ربك (٣)، وقال قتادة: عذاب من ربك (٤)، ابن جريج: عتق من نار خرج من وادي جهنم (٥)، والطائف لا يكون إلا بالليل؛ قاله الفراء.

الثالثة: قلت: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمْ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في

(١) ضعيف جداً: البغوي (٨/ ١٩٤، ١٩٥) في تفسيره من طريق السدي الكذاب، عن الكلبي الكذاب، عن أبي صالح الكذاب، فالإسناد مظلم.

(٢) سدفة: ظلمة - اللسان «سدفة».

وقيل: اختلاط النور والظلمة.

(٣) ضعيف: الطبري من طريق قابوس عن أبيه، وفي قابوس لين، ومن طريق العوفيين (٢٩/ ٣٣) في تفسيره.

(٤) ذكره الماوردي (٤/ ٣٠٩) في النكت والعيون.

(٥) عزاه السيوطي (٦/ ٣٩٥) في الدر المنثور لابن المنذر. قلت: وهو ضعيف لعدم وجود سند له.

النار قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»^(١)، وقد مضى ميثاقا في سورة آل عمران عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٣٣﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٣٤﴾ أَنْ آغِدُوا عَلَيَّ حَزْبَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم؛ عن ابن عباس والفراء وغيرهما، قال الشاعر:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ الْجُونُ الْبَيْهِيمُ فَمَا يَنْجَابُ عَنِ صَبْحِ صَرِيمٍ

أي: احترقت فصارت كالليل الأسود، وعن ابن عباس أيضا: كالرماد الأسود^(٣).

قال: الصريم: الرماد الأسود بلغة خزيمية. الثوري: كالزرع المحصود^(٤)، فالصريم بمعنى المصروم، أي: المطبوخ ما فيه، وقال الحسن: صرم عنها الخير، أي: قطع^(٥)؛ فالصريم مفعول أيضا، وقال المورج: أي: كالرملة انصرفت من معظم الرمل، يقال: صرمة وصرائم؛ فالرملة لا تنبت شيئا ينتفع به، وقال الاخفش: أي: كالصبح انصرم من الليل، وقال المبرد: أي: كالنهار؛ فلا شيء فيها، قال شمر: الصريم الليل والصريم النهار؛ أي: ينصرم هذا عن ذلك وذلك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف؛ ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل، قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن النهار يسمى صريما ولا يقطع عن تصرف، ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ﴾ ينادي بعضهم بعضا: ليقطعن ثم نخلهم إذا أصبحوا بسدقة من الليل لئلا يتسبه المساكين ﴿أَنْ آغِدُوا عَلَيَّ حَزْبَكُمْ﴾ عازمين على الصرام والجلداد، قال قتادة: حاصدين زرعكم، وقال الكلبي: ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل، فتحالفوا بينهم ليغدوا غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين.

﴿فَأَنظَلُّوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٣٦﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٣٧﴾ وَغَدُوا عَلَيَّ حَزْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنظَلُّوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ أي: يتسارون؛ أي: يخفون كلامهم ويسرونه لئلا يعلم بهم

أحد؛ قاله عطاء وقتادة^(٦)، وهو من خفت يخفت إذا سكن ولم يبين، كما قال دريد بن الصمة:

وَإِنِّي لَمُ أَهْلِكُ سُلَالًا وَكَلَّمُ أُمَّتُ خُفَاتًا وَكَلَّا ظَنَّهُ بِي عُودِي

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين، فيحضروا

وقت الحصاد والصرام، ﴿وَعَدُوا عَلَيَّ حَزْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي: على قصد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا

من مرادهم، قال معناه ابن عباس^(٧) وغيره، والحرد، القصد، حرد يحرد بالكسر حردا قصد،

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) ضعيف: فيه جهالة المحدث عن ابن عباس كما في تفسير الطبري (٢٩ / ٣٣).

(٣) (٥ - ٣) للماوردي (٤ / ٣٠٩) في النكت والعيون.

(٤) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٩ / ٣٤).

(٥) منقطع: بين علي بن أبي طلحة والوالي، وابن عباس - رضي الله عنهما الطبري (٢٩ / ٣٤) في تفسيره.

تقول: حَرَدْتُ حَرْدَكَ؛ أي: قصدت قصدك، ومنه قول الراجز:
أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغَلَّةِ

أنشده النحاس :

قَدْ جَاءَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغَلَّةِ

قال المبرد: المغلة ذات الغلة، وقال غيره: المغلة التي يجري الماء في غللتها أي: في أصولها، ومنه تغللت بالغالية، ومنه تغللت، أبدل من اللام ياء، ومن قال تغللت فمعناه عنده جعلتها غلافا، وقال قتادة ومجاهد: ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ أي: على جد^(١). الحسن: على حاجة وفاقة^(٢)، وقال أبو عبيدة والقتبي: على حرد: على منع؛ من قولهم حاردت الإبل حرادا أي: قلت: البانها، والحرد من النوق القليلة الدر، وحاردت السنة: قل مطرها وخيرها، وقال السدي وسفيان: ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ على غضب، والحرد: الغضب، قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: وهو مخفف؛ وأنشد شعراً:

إِذَا جِيَادُ الْحَيْلِ جَاءَتْ تَرْدِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ غَضَبٍ وَحَرْدٍ

وقال ابن السكيت: وقد يحرك؛ تقول منه: حرد بالكسر حردا، فهو حارد وحردان، ومنه قيل: أسد حارد، وليوث حوارد، وقيل: ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ على انفراد، يقال: حرد يحرد حرودا؛ أي: تنحى عن قومه ونزل منفردا ولم يخالطهم، وقال أبو زيد: رجل حريد من قوم حرداء، وقد حرد يحرد حرودا: إذا ترك قومه وتحول عنهم، وكوكب حريد؛ أي: معتزل عن الكواكب، قال الأصمعي: رجل حريد؛ أي: فريد وحيد، قال: والمنحرد المنفرد في لغة هذيل، وأنشد لأبي ذؤيب:

كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي الْجَوِّ مُنْحَرِدٌ

ورواه أبو عمرو بالجيم، وفسره: منفرد، قال: وهو سهيل، وقال الأزهري: حرد اسم قريتهم، السدي: اسم جنتهم؛ وفيه لغتان: حرد وحرد، وقرأ العامة بالإسكان، وقرأ أبو العالية وابن السميعة بالفتح^(٣)؛ وهما لغتان، ومعنى ﴿قَادِرِينَ﴾ قد قدروا أمرهم وبنوا عليه؛ قاله الفراء، وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم^(٤)، وقال الشعبي ﴿قَادِرِينَ﴾ يعني على المساكين^(٥)، وقيل: معناه من الوجود؛ أي: منعوا وهم واجدون.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿١﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ أي: لما رأوها محترقة لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد، أنكروها وشكوا فيها، وقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا لَضَالُونَ﴾ أي: ضللنا الطريق إلى جنتنا؛ قاله قتادة^(٦)، وقيل: أي: إنا لضالون عن الصواب في غدونا وعلى نية منع

(١) كذا في السابق بسند صحيح: الطبري (٣٤/٢٩) في تفسيره..

(٢) السابق (٣٥/٢٩).

(٣) قراءة غير متواترة: وأثر السدي وغيره ضعيف جداً وغريب، ولا يصح، وقال ابن كثير (٨/١٥٥): «وأبعد السدي في هذا. أ. ه. قصد ابتعد عن الصواب والخير.

(٤)، (٥) ذكرهما الماوردي (٤/٣١٠) في النكت والعيون.

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٦/٢٩) في تفسيره.

المساكين؛ فلذلك عوقبنا، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حرماننا جنتنا بما صنعنا، روى أسباط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والمعاصي، إن العبد ليدنّب الذنّب فيحرم به رزقا، كان هيئ له» ثم أتلا: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩] الآيتين^(١).

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَومُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنْ كُنَّا طَافِينَ ﴾ ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنْ إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: هلا تستنون، وكان استنواؤهم تسيحا؛ قاله مجاهد وغيره^(٢)، وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، قال أبو صالح: كان استنواؤهم سبحان الله، فقال لهم: هلا تسبحون الله؛ أي: تقولون: سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم^(٣)، قال النحاس: أصل التسيح التنزيه لله عز وجل؛ فجعل مجاهد التسيح في موضع إن شاء الله؛ لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته، وقيل: هلا تستغفرونه من فعلكم وتوبون إليه من خبث نيتكم؛ فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكرهم انتقامه من المجرمين: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ اعترفوا بالمعصية، ونزهوا الله عن أن يكون ظلما فيما فعل، قال ابن عباس في قولهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: نستغفر الله من ذنبا، ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَومُونَ﴾ أي: يلوم هذا في القسم ومنع المساكين، ويقول: بل أنت أشرت علينا بهذا، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنْ كُنَّا طَافِينَ﴾ أي: عاصين بمنع جق الفقراء وترك الاستثناء، وقال ابن كيسان: طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبائنا من قبل، ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنعت أبائنا؛ فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها، وأمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها، وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان، فيها غناب يحمل البغل منها عنقودا واحدا، وقال اليماني أبو خالد: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم، وقال الحسن: قول أهل الجنة: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ لا أدري إيمانا كان ذلك منهم أو على حدا ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف في كونهم مؤمنين، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتنني تعباً، والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا؛

(١) فصحف: فيه إرسال ابن سابط، عن ابن مسعود ولا أراه سمع منه، وفي سننه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، ورواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ١٥٥).

وله رواية ضعيفة ضعفها الألباني (٩٠) في سنن ابن ماجه عن ثوبان - رضي الله عنه.

(٢) الطبري (٢٩/ ٣٧) في تفسيره.

(٣) البخاري (٨/ ١٩٦) في تفسيره.

حكاة القشيري، وقراءة العامة: ﴿يُدَلَّنَا﴾ بالتخفيف، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد (١)، وهما لغتان، وقيل: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم، والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه، وقد مضى في سورة النساء القول في هذا.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الدنيا وهلاك الأموال؛ عن ابن زيد، وقيل: إن هذا وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجذب لدعاء النبي ﷺ، أي: كفضلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر وحلفوا ليقطن ﷺ وأصحابه، وليرجعن إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضرب القينات على رؤوسهم؛ فأخلف الله ظنهم وأسروا وقتلوا وانهمزوا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا، ثم قيل: إن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجبا عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعا؛ والأول أظهر، والله أعلم، وقيل: السورة مكية؛ فبعد حمل الآية على ما أصاب أهل مكة من القحط، وعلى قتال بدر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٧﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٤٠﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْيِرُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ تقدم القول فيه؛ أي: إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا، وكان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا، وقللة حظوظ المسلمين منها؛ فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين، قالوا: إن صح أن نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساونا، فقال: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كالكفار، وقال ابن عباس وغيره: قالت كفار مكة: إننا نعطي في الآخرة خيرا مما تعطون؛ فنزلت (٢): ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ثم وبخهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج؛ كان أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: لكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي، ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْيِرُونَ﴾ تختارون وتشتهون، والمعنى: أن لكم - بالفتح ولكنه كسر لدخول اللام؛ تقول: علمت أنك عاقل بالفتح، وعلمت إنك لعاقل - بالكسر - فالعامل في ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْيِرُونَ﴾ ﴿تَدْرُسُونَ﴾ في المعنى، ومنعت اللام من فتح ﴿إِنْ﴾، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ ثم ابتداء فقال: ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْيِرُونَ﴾ أي: إن لكم في هذا الكتاب إذا ما تخيرون؛ أي: ليس لكم ذلك، والكناية في ﴿فِيهِ﴾ الأولى، والثانية راجعة

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٣٨).

(٢) ذكره البغوي (٨/ ١٩٧) دون عزو لابن عباس رضي الله عنه.

إلى الكتاب. ثم زاد في التوبيخ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ أي: عهود ومواثيق، «بِالْعَقَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» مؤكدة، وبالباغلة المؤكدة بالله تعالى، أي: أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة، ﴿إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ كسرت ﴿إِنْ﴾ لدخول اللام في الخير، وهي من صلة «أَيْمَانٌ»، والموضع النصب ولكن كسرت لأجل اللام؛ تقول: حلفت إن لك لكذا، وقيل: تم الكلام عند قوله: «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ثم قال: ﴿إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ إذا؛ أي: ليس الأمر كذلك، وقرأ ابن هرمز: «أَيْنَ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ» «بِالْعَقَّةِ» بالفتحة؛ بالاستفهام فيهما جميعا، وقرأ الحسن البصري: «بِالْعَقَّةِ» بالنصب على الحال؛ إما من الضمير في «لَكُمْ» لأنه خير عن «أَيْمَانٌ» ففيه ضمير منه، وإما من الضمير في «عَلَيْنَا» إن قدرت «عَلَيْنَا» وصفا للإيمان لا متعلقا بنفس الإيمان؛ لأن فيه ضميرا منه، كما يكون إذا كان خيرا عنه، ويجوز أن يكون حالا من «أَيْمَانٌ» وإن كانت نكرة، كما أجازوا نصب «حَقًّا» على الحال من «متاع» في قوله تعالى: «مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» [البقرة: 2٤١]، وقرأ العامة: «بِالْعَقَّةِ» بالرفع نعت لـ «أَيْمَانٌ».

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: «سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ» أي: سل يا محمد هؤلاء المتقولين علي: أيهم كفيلا بما تقدم ذكره، وهو أن لهم من الخير ما للمسلمين، والزعيم: الكفيل والضمين؛ قاله ابن عباس وقتادة، وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى، وقال الحسن: الزعيم الرسول، «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ» أي: اللهم، والميم صلة، «شُرَكَاءُ» أي: شهداء، «فُلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ» يشهدون على ما زعموا، «إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» في دعواهم، وقيل: أي: فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم؛ فهو أمر معناه التعجيز.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَ هَقَّهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» يجوز أن يكون العامل في «يَوْمَ» «فُلْيَاتُوا» أي: فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق ليشفع الشركاء لهم، ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي: اذكر يوم يكشف عن ساق؛ فيوقف على: «صَادِقِينَ» ولا يوقف عليه على التقدير الأول، وقرئ: «يوم يكشف بالنون، وقرأ ابن عباس: «يوم تكشف عن ساق» بناء مسمى الفاعل؛ أي: تكشف الشدة أو القيامة، عن ساقها؛ كقولهم: شمרת الحرب عن ساقها، قال الشاعر:

فتى الحرب إن عضت به الحربُ عضها
وإن شمّرت عن ساقها الحربُ شمّرا
وقال الراجز:

قد كشفت عن ساقها فشدوا
وجدت الحربُ بكم فجِدُوا

وقال آخر:

عجبت من نفسي ومن إشفاقها
ومن طراد الطيرِ عن أرزاقها

في سنة قد كشفت عن ساقها حمراء تَبْرِي اللحم عن عرقها

وقال آخر:

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

وعن ابن عباس أيضا والحسن وأبي العالية: «تُكشَفُ» بئاء غير مسمى الفاعل، وهذه القراءة راجعة إلى معنى: «يُكشَفُ» وكأنه قال: يوم تكشف القيامة عن شدة، وقرئ: «يوم تُكشَفُ» بالياء المضمومة وكسر الشين؛ من أكشف: إذا دخل في الكشف، ومنه: أكشف الرجل فهو مكشَف: إذا انقلبت شفته العليا، وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: «يَوْمَ يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ» قال: عن كرب وشدة^(١). أخبرنا ابن جريج عن مجاهد قال: شدة الأمر وجده^(٢)، وقال مجاهد: قال ابن عباس هي أشد ساعة في يوم القيامة^(٣)، وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب والأمر، قيل: كشف الأمر عن ساقه، والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجِد شمر عن ساقه؛ فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة، وقيل: ساق الشيء أصله الذي به قوامه؛ كساق الشجرة وساق الإنسان، أي: يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها، وقيل: يكشف عن ساق جهنم، وقيل: عن ساق العرش، وقيل: يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البدن؛ أي: يكشف المريض عن ساقه ليبرر ضعفه، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة، فلا يمكنه أن يقوم ويخرج، فأما ما روي أن الله يكشف عن ساقه، فإنه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطي، ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره، وقيل: يكشف عن نوره - عز وجل.

وروي أبو موسى عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «عَنْ سَاقٍ» قال: «يكشف عن نور عظيم يخرون له سجدا»^(٤)، وقال أبو الليث السمرقندي في تفسيره: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا ابن منيع، قال: حدثنا هذبة، قال: حدثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة عن أبي موسى، قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا، فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم: ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون: إن لنا ربنا كنا نعبده في الدنيا ولم نره» قال: وتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون: نعم، فيقال: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: إنه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إلى الله تعالى، فيخرون له سجدا، وتبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي^(٥) البقر فينظرون إلى الله تعالى، فيريدون السجود، فلا يستطيعون، فذلك قوله تعالى: «يَوْمَ يُكشَفُ عَنْ سَاقٍ»

(١) ضعيف: أسامة بن زيد هذا ضعيف وهو بالطبع غير الصحابي الجليل حب رسول الله ﷺ، ورواه ابن المبارك (١/ ١٠٥) في الزهد.

(٢) منقطع: بين ابن جريج ومجاهد السابق (١/ ١٠٥)، والطبري (٢٩/ ٤١).

(٣) في إسناده نظر: الطبري (٢٩/ ٤١)، وابن المبارك (١/ ١٠٥) في الزهد، وهذا مخالف لإثبات أهل السنة للساق لله تعالى، ولو فرض صحة الإسناد فلعل ساعة كشف الساق هي أشد الساعات - الله أعلم.

(٤) ضعيف: الطبري (٢٩/ ٤٤) في التفسير وفيه: روح بن جناح، وضعفه ابن حبان، وفيه جهالة مولى لعمر بن عبد العزيز، وفيه تدليس الوليد بن مسلم وهو يدلس تدليس التسوية، ويلزمه التصريح بالتحديث من أول الإسناد إلى منتهاه، وإنما صرح في أوله وحسب.

(٥) صياصي البقر: قرونها والواحدة صيصة. اللسان «صيص».

وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١﴾ فيقول الله تعالى: عبادي، ارفعوا رؤوسكم، فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار، قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال: الله الذي لا إله إلا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثة أيمان؛ فقال عمر: ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إلي من هذا (١). وقال قيس بن السكن: حدث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال: إذا كان يوم القيامة قام الناس لرب العالمين أربعين عاماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، حفاة عراة يلجمهم العرق، فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاماً، ثم ينادي مناد: أيها الناس، أليس عدلاً من ربكم الذي خلقكم وصوركم وأماكم وأحياكم ثم عبدتم غيره أن يولي كل قوم ما تولوا؟ قالوا: نعم، قال: فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقدفهم في النار، فيبقى المسلمون والمنافقون يقال لهم: ألا تذهبون قد ذهب الناس؟ فيقولون: حتى يأتينا ربنا؟ فيقال لهم: أو تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عرفناه، قال فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلى لهم فيخبر من كان يعبد مخلصاً ساجداً، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفايد (٢)، فيذهب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة متواضعة؛ ونصبها على الحال، ﴿تَرَاهُمْ ذُلَّةً﴾ وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشد بياضاً من الثلج، وتسود وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سواداً من القار (٣).

قلت: معنى حديث أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وغيره (٤).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ معافون أصحاء، قال إبراهيم التيمي: أي: يدعون بالأذان والإقامة فيأبونه (٥)، وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون: حي على الفلاح فلا يجيبون (٦)، وقال كعب الأحبار: والسله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات، وقيل: أي: بالتكليف الموجه عليهم في الشرع؛ والمعنى متقارب، وقد مضى في سورة البقرة الكلام في وجوب صلاة الجماعة (٧)، وكان الربيع بن خثيم قد فلق (٨) وكان يهادى (٩) بين الرجلين إلى المسجد؛ فقيل: يا أبا يزيد، لو صليت في بيتك لكانت لك رخصة، فقال: من سمع

(١) ضعيف جداً: فيه عمارة القرشي قال الأزدي: ضعيف جداً كما في الميزان (٥/ ٢١٥)، والحديث عند السمرقندي (٣/ ٢٩٠) في تفسيره.

(٢) السفايد: على وزن فاعيل جمع سفود؛ وهي حديدة ذات شعب معقفة، معروفة بشوى بها اللحم. اللسان «سفد».

(٣) ضعيف: الطبري (٢٩/ ٤٢) في تفسيره، وفيه تدليس الأعمش وقد عنعنه، وقيس بن السكن لا أراه سمع من عمر - رضي الله عنه، وفي الحديث نكارة من ناحية المتن.

(٤) صحيح: وهي أحاديث الشفاعة لكن هذا شاهد للمتن، ويبقى الإسناد ضعيفاً، والله أعلم.

(٥، ٦) الطبري (٢٩/ ٤٥) في تفسيره.

(٧) عند الآية (٤٣).

(٨) فُلج: أصابه الفالج وهو داء معروف كأنه الشلل. اللسان «فلج».

(٩) يهادى بين الرجلين: يمشي معتمداً عليهما من ضعفه وتمايله النهاية ٥/ ٢٥٥.

حي على الفلاح فليجب ولو حبوا^(١)، وقيل لسعيد بن المسيب: إن طارقا يريد قتلك فتغيب، فقال: أبعث لا يقدر الله علي؟ فقيل له: اجلس في بيتك، فقال: أسمع حي على الفلاح، فلا أجب!
﴿فَدَرَنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَرَنِي﴾ أي: دعني، ﴿وَمَنْ يُكَذِّبُ﴾ «من» مفعول معه أو معطوف على ضمير المتكلم، ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن؛ قاله السدي، وقيل: يوم القيامة، وهذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي: فانا أجازيهم وأنقم منهم، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون؛ فعذبوا يوم بدر، وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر، وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه، وقال أبو روق: أي كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار، وقال ابن عباس: سخر بهم، وقيل: هو أن نأخذهم قليلا ولا نباغتهم، وفي حديث «أن رجلا من بني إسرائيل قال يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني» قال «فأوحى الله إلى نبي زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر، إن جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت»^(٢)، والاستدراج: ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال كالترج، ومنه قيل درجة؛ وهي منزلة بعد منزلة، واستدرج فلان فلانا؛ أي استخرج ما عنده قليلا، ويقال: درجه إلى كذا واستدرجه بمعنى؛ أي: أدناه منه على التدرج فترج هو.

قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وأطيل لهم المدة، والملاوة: المدة من الدهر، وأملى الله له أي: أطال له، والملاوة: الليل والنهار، وقيل: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: لا أعاجلهم بالموت؛ والمعنى واحد، وقد مضى في «الأعراف»^(٣) بيان هذا، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إن عذابي لقوي شديد فلا يفوتني أحد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

عاد الكلام إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: أم تلتمس منهم ثوبا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله؟ فهم من غرامة ذلك مشقون لما يشق عليهم من بذل المال؛ أي: ليس عليهم كلفة، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويصلون إلى جنات النعيم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أي: علم ما غاب عنهم، ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ وقيل: أيتزل عليهم

(١) القصة في الزهد (١/ ٢٥) لابن المبارك، ومعرفة الثقات (١/ ٣٥٣) للعجلي، وشعب الإيمان (٣/ ٧٨) للبيهقي.

(٢) الخبر من الإسرائيليات وليس من كلامه ﷺ.

(٣) عند الآية (١٨٣).

الوحي بهذا الذي يقولون، وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوح المحفوظ (١)، فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به، ويكتبون أنهم أفضل منكم، وأنهم لا يعاقبون، وقيل: ﴿يَكْتُوبُونَ﴾ يحكمون لأنفسهم بما يريدون.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لقضاء ربك، والحكم هنا القضاء، وقيل: فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، وقال ابن بحر: فاصبر لنصر ربك، قال قتادة: أي: لا تعجل ولا تغاضب فلا بد من نصرك (٢)، وقيل: إنه منسوخ بآية السيف (٣)، ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني يونس عليه السلام، أي: لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة، وقال قتادة: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت؛ وقد مضى خبره في سورة يونس، والأنبياء، والصفات والفرق بين إضافة ذي وصاحب في سورة يونس فلا معنى للإعادة، ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: حين دعا في بطن الحوت فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: مملوء غما، وقيل: كربا، الأول قول ابن عباس ومجاهد، والثاني قول عطاء وأبي مالك. قال الماوردي (٤): والفرق بينهما: أن الغم في القلب، والكرب في الأنفاس، وقيل: مكظوم محبوس، والكظم: الحبس؛ ومنه قولهم: فلان كظم غيظه، أي: حبس غضبه؛ قاله ابن بحر، وقيل: إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس؛ قاله المبرد، وقد مضى هذا وغيره في «يوسف».

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۗ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَجَعَلَهُ مِنْ السُّلِحِينَ ۗ﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ قراءة العامة: ﴿تَدَارَكَهُ﴾، وقرأ ابن هرمز والحسن: «تَدَارَكه» بتشديد الدال؛ وهو مضارع أدغمت التاء منه في الدال، وهو على تقدير حكاية الحال؛ كأنه قال: لولا أن كان يقال فيه: تداركه نعمة، ابن عباس وابن مسعود: «تداركته» وهو خلاف المرسوم، و﴿تَدَارَكَهُ﴾ فعل ماضٍ مذكر حمل على معنى النعمة؛ لأن تأنث النعمة غير حقيقي، و«تداركته» على لفظها، واختلف في معنى النعمة هنا؛ فقيل النبوة؛ قاله الضحاك (٥)، وقيل: عبادته التي سلفت؛ قاله ابن جبير (٦)، وقيل: نداؤه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]؛ قاله ابن زيد، وقيل: نعمة الله عليه إخراجها من بطن الحوت؛ قاله ابن بحر، وقيل: أي: رحمة من ربه؛ فرحمه وتاب عليه (٧)، ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لنبذ مذموما ولكنه نبذ سقيما غير مذموم، ومعنى «مذموم» في قول ابن عباس: مليم (٨)، قال بكر بن عبد الله: مذنب (٩)، وقيل: «مذموم»

(١) كذا عند الطبري دون عزو لابن عباس رضي الله عنهما (٢٩ / ٤٦) في تفسيره .

(٢) صحيح : الطبري (٢٩ / ٤٧) صحيحاً إليه .

(٣) ولا نسخ هنا فلا تعارض بين الأمرين .

(٤) البكت والعيون (٦ / ٧٣) .

(٥ - ٩) زاد المسير (٤ / ٣١٣) لابن الجوزي .

مبعد من كل، خير، والعراء: الأرض الواسعة الفضاء التي ليس فيها جبل ولا شجر يستر، وقيل: ولولا فضل الله عليه لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذموماً، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣]، ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره، ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي، وشفعه في نفسه وفي قومه، وقبل توبته، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة، ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: يعتانونك، ﴿بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أخبر بشدة عداوتهم للنبي ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه، وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المکتل (١) والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر (٢)، وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم؛ فلما مر النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيِّداً
وإخال أنك سيِّدٌ معيُونُ

فحصم الله نبيه ﷺ ونزلت (٣) ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾، وذكر نحوه الماوردي، وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحداً - يعني في نفسه وماله - تجوع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه وماله فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن؛ فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن.

قلت: أقوال المفسرين واللغويين تدل على ما ذكرنا، وأن مرادهم بالنظر إليه قتله، ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد: «ليزهقونك» أي: ليهلكونك، وهذه قراءة على التفسير، من زهقت نفسه وأزهقها، وقرأ أهل المدينة: «لَيُزْلِقُونَكَ» بفتح الياء (٤)، وضمها الباقون؛ وهما لغتان بمعنى؛ يقال: زلقه يزلقه وأزلقه يزلقه إزلاقاً إذا نجاه وأبعده، وزلق رأسه يزلقه زلقاً إذا حلقه، وكذلك أزلقه وزلقه تزليقاً، ورجل زلق وزملق - مثال هذب - وزمالمق وزملق - بتشديد الميم - وهو الذي ينزل قبل أن يجامع؛

(١) المکتل: الزنبيل وهو وعاء من خوص اللسان «كتل» .

(٢) ذكره الواحدى معلقاً (ص ٣٧٨) في أسباب النزول، والبغوي (٨ / ٢٠١، ٢٠٢) في تفسيره .

(٣) الواحدى في السابق دون ذكر الشعر موقوفاً على الكلبي، والبحر المحيط (٨ / ٣١٧، ٣١٨)، والبغوي (٨ / ٢٠٢) في تفسيره .

(٤) قراءة سبعة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٣) .

حكاه الجوهري وغيره، فمعنى الكلمة إذا التنحية والإزالة؛ وذلك لا يكون في حق النبي ﷺ إلا بهلاكه وموته، قال الهروي: أراد ليعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك، وقال ابن عباس: ينفذونك بأبصارهم^(١)؛ يقال: زلق السهم وزهق: إذا نفذ؛ وهو قول مجاهد، أي: ينفذونك من شدة نظرهم، وقال الكلبي: يصرعونك^(٢)، وعنه أيضا والسدي وسعيد بن جبير: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة^(٣)، وقال العوفي: يرمونك^(٤)، وقال المؤرج: يزيلونك، وقال النضر بن شميل والأخفش: يفتنونك، وقال عبد العزيز بن يحيى: ينظرون إليك نظرا شزرا بتحديق شديد، وقال ابن زيد: ليمسونك، وقال جعفر الصادق: ليأكلونك، وقال الحسن وابن كيسان: ليقتلونك، وهذا كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه، قال الشاعر:

ترميك مزلقة العيون بطرفها وتكلُّ عنك نصال نبل الرامي

وقال آخر:

يتقارضون إذا التقوا في مجلس نظراً يزل مواطىء الأقدام

وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك، وهذا كله راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع: يصيبونك بالعين، والله أعلم.

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

أي: وما القرآن إلا ذكر للعالمين، وقيل: أي وما محمد إلا ذكر للعالمين يتذكرون به، وقيل: معناه شرف؛ أي: القرآن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والنبي ﷺ شرف للعالمين أيضا، شرفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.

(١) حسنٌ بمجموع طرقه: الطبري (٢٩/ ٤٨، ٥٠) في تفسيره من طرق عدة منها الصحيح والضعيف .

(٢) النكت والعيون (٤/ ٣١٣) للماوردي، والشوكاني (٧/ ٢٨٧) في فتح القدير .